فى معرض الآراء

للأستاذ عباس محمود العقاد

كتب الأستاذ أديب عباسى فى بعض الأعداد القريبة من الرسالة مقالاً سأل فى عنوانه : « هل انتهت السياحات والكشوف الظاهرة فى القرن السابع عشر أو بعده ؟ » ثم عاد سائلاً فيه : « أصحيح أن الكشوف الظاهرة أو الكشوف الجغرافية انتهت فى القرن السابع عشر أو حواليه ، ومن ثم بدأت الكشوف الباطنة للنفس كنتيجة لانصراف الذهن البشرى عن الدراسات والسياحات الظاهرة إلى الدراسات والسياحات الباطنة ؟ ! إننى أشك فى صحة هذا الزعم ، بل أكاد أنفيه قاطعاً »

ثم استطرد فى جوابه قائلاً : « ليست السياحات الظاهرة وقفاً على الغرب فى مجاهل الأرض واكتشاف كل رجاً من أرجائها ؛ وليس الاستشراف للمجهول فى خارج حدود النفس الإنسانية قاصراً على الحدود الجغرافية لقارات الكرة الأرضية ؛ فهناك السماء بعوالمها الشاسعة، وأكوانها المبثوثة فى رحاب الكون، وأسرارها المحيرة ؛ وثمت الذرة بصفاتها العجيبة وسلوكها الغريب وأسرارها الدقيقة ؛ وهناك أمواج الأثير من ضوء وحرارة وكهرباء وأشعة كونية . . . » إلى أن قال :

« من يستطيع أن يقول : إن الكشوف الظاهرة التى تمت فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وبداءة هذا القرن فى عوالم الطبيعة والحياة تقل روعة وأسراً للخيال وشدّها للإنسان عن أروع المغامرات الجغرافية التى تمت فى القرن السابع عشر أو بعده؟ ثم هذه الكشوف الجغرافية ذاتها هل انتهت حقاً فى القرن السابع عشر ؟ أين مغامرات سكوت وشاكلتون وبيرو وغيرهم . . . . »

* * *

ومن طرائف المناقشات أن تأتى هذه المناقشة من الأستاذ أديب عباسى تعقيباً لما أسلفناه فى مقال « الحدود الحاسة » الذى قلنا فيه إننا قد نستغنى فى الحدود والتعريفات عن الإحصاء والإستقصاء لما هو معلوم غنى عن البيانات من ضرورات الاستثناء فى كل قاعدة . فاذا قال الإنسان إن النهار مضئ وإن الليل مظلم فليس من الواجب بعد ذلك أن يحصى أيام الغيم ولا الأغوار المحجوبة التى تظلم بالليل والنهار

فقد حدثت كشوف جغرافية فى القرن التاسع عشر والقرن العشرين ، ولكنها كلها لا تخرج عن « المتممات » التى تأتى بعد الفراغ من الأسس والأركان واستقرار البناء على نظامه الأخير . وكذلك نقول مثلاً إن القرن التاسع عشر كان قرن الانقلاب الصناعى ولا نمنع بذلك استمرار الاختراع فى عالم الصناعة إلى القرن العشرين بل إلى هذه الساعة

فالأرض نفسها كانت مجهولة قبل الكشوف التى بلغت أوجها فى القرن السابع عشر وما حواليه

والبنية الإنسانية نفسها كانت مجهولة قبل تلك الكشوف ، فكان من الناس من يتنازع فى شكل الأرض وفى القرار الذى هى قائمة عليه ؛ وكان منهم من يزعم أن الإنسان فى بعض الأصقاع يشبه الكلاب أو يشبه الغيلان ، ويجرى التناسل بينه وبين فصائل شتى من الحيوان

فلما انتهت كشوف القرن السابع عشر انتهى الخلاف فى أمر الأشكال والظواهر ، وانفتح المجال للبحث فى الحقائق والبواطن ، أو لمعرفة الإنسان نفساً بعد أن عرفناه تركيباً ووضعناه فى موضعه من عالم الأحياء الظاهرين

ولقد ذكر الأستاذ « أديب » كشوف الكواكب وكشوف الذرة وأمواج الأثير والأشعة الكونية ، إلى أمثال هذه الكشوف العلمية التى حدثت بعد القرن السابع عشر ولا تزال تحدث فى هذه الأيام

ولكن ماشأن هذه الكشوف وما نحن فيه ؟ وأين هى من « الحاسة الاجتماعية » التى تتعلق بها القصص وأبطال الرواية وأبطال السياحات ؟ أوالتى تتعلق بها الديمقراطية وما لها من الأثر فى وصف المجتمع وتحليل أفراده وطبقاته ؟

فالسائح الذى يعود من الأقطار الآسيوية وقد روى لأبناء وطنه أنباء البذخ والفخامة ونوادر الذهب والفضة والجواهر والنفائس فى أيدى الناس ؛ يلهب أشواقهم ويعلق آمالهم وأحلامهم وأوهامهم أضعاف أضعاف ما يفعله كشف الذرة وما إليه من كشوف لا تتصل « بالحاسة الاجتماعية » إلا من بعيد

وألف كشف من كشوف « الذرة » لا يغير وصف الأبطال

فى القصص والروايات إلا أن يصل إلى اختراع طيارات أوسفن أو أسلحة أو ما شابه هذا من أمور تتصل « بالحاسة الاجتماعية » على نحو من الأنحاء

فالمعول فيما كنا نبحثه من اختلاف وصف الأبطال في القصص بين العصور القديمة والعصور الحديثة إنما هو على شعور الناس بها ، أو تعلق « الحاسة الاجتماعية » بموضوعها ، وليس المعول على حدوثها فى عالم الواقع أو تسجيلها في دواوين العلماء

و « الندرة » بعد لا يكشفها إلا عالم أومشتغل بعلم وصناعة ؛ أما البقاع فيكشفها كل من شاء الرحلة من المغامرين ، ويعنى بها كل من قعد وراءهم من المتخلفين ، ويشتغل بها من يراقب الجماهير ويدرس النفوس ويسجل أطوار الشعوب والأفراد . فهى لاتنعزل عن الحياة الاجتماعية ثم الحياة النفسية التى هى موضوع الروايات ومحور وصف الأبطال ، وليست كذلك كشوف الكواكب أو كشوف الندرات

ولعل فيما تقدم توضيح ما التبس على الأستاذ « أديب » فهو غنى عن المزيد من التوضيح

* * *

وقد كتب إلينا الأستاذ عبد الحميد العبادى يسأل عن كتاب الدكتور ويلكوكس واسمه باللغة الإنجليزية ، فذكرنا هذا الإسم فى العدد الـ (٢٣٦) من الرسالة ، ووعدنا بالإجابة عما استوضحه الأستاذ من أثر الطريقة الزراعية الحديثة فى أحوال العالم بأسره ، وأنه ربما فاق فى اتساعه وبعد مداه أثر الانقلاب الصناعى منذ قرن من الزمان

أما شرح الطريقة الزراعية العلمية التى تكفل لكل قطر من الأقطار أن يعيش على موارده الداخلية فليست الرسالة محله ، ولسنا نحن أصحاب الاختصاص فيه

وأما الأثر الاجتماعى فيستطاع العلم به إذا عرفنا ما كان من أثر الانقلاب الصناعى فى القرن الماضى ، وعرفنا البواعث التى أفضت إلى ذلك الأثر ولا تزال تفضى إليه

إن الانقلاب الصناعى قد أحوج الدول إلى مستعمرات لجلب « الخامات » وبيع المصنوعات وتسخير الأيدى العاملة بأبخس الأجور

وإن الانقلاب الصناعى قد أخرج للأمم طبقات العمال وأثار بينهم وبين أصحاب الأموال ذلك الصراع الذى قوض ما قوض من دول ، وأقام ما أقام من مذاهب فى السياسة والدين والأخلاق

وإن الانقلاب الصناعى قد أذكى ضرام التنافس بين الحكومات ، وأنشب ما أنشب من حروب وثورات

فكل هذا يتغير لا محالة إذا استغنت كل أمة من الخامات واستغنت عن الأسواق

كل هذا يتغير إذا نجحت طريقة المجددين فى الزراعة العلمية واستطاعت الأمم أن تعيش على مواردها الداخلية كما يقول الدكتور ويلكوكس فى كتابه الذى أشرنا إليه

كل هذا يتغير ، ويتغير معه تقسيم المجتمع وتقسيم الثروة وتقسيم عناصر الحكومة وتقسيم عوامل السياسة وما يتبعها من أهبة الحرب وأهبة الفتح وأهبة « التحالف » من جهة ، والتعادى والتباغض من جهة أخرى

لاخامات فى الخارج فلا مستعمرات ، ولا أسواق فى الخارج فلا منافسات ، ولا احتكار فلا تكديس للثروة ولا نزاع بين العاملين وأصحاب رؤوس الأموال ، ولا تسليح من ثم ولا توجيه للمصانع إلى غير المفيد من صناعات العمار والإنشاء دون التدمير والتقويض . وإذا احتاجت الأمم إلى بعض الخامات أو بعض الأسواق ، فإنما يكون ذلك فى أمان واستقرار وتعاون واشتراك على النحو الذى يجري به البيع والشراء بين الأفراد ، أو على النحو الذى يجرى به التبادل بين جماعات التعاون ولا سيما فى بلاد الشمال ونعنى بها بلاد الدنمرك والسويد والنرويج

ذلك مجمل الدعوة التى يبشر بها المجددون فى علم الزراعة والمشفقون على بنى الإنسان من أهوال الحروب

والمذهب معقول فى أصوله وفروعه . ولو أنه مشكوك فى مقدماته أو فى نتائجه لكان مع ذلك جديراً بالبحث والمتابعة والجد فى تحقيق ما يستطاع من خيراته وحسناته ، لأن متابعة الأحلام قد تجوز إذا عظمت الغاية وعظم الخطر المرهوب . وأى غاية أعظم من اتقاء الحروب ؟ وأى خطر أعظم من خطر الفجائع التى تطبق على الشعوب المسوقة إلى تلك الحروب ؟

إن متابعة الأحلام قد تجوز فى هذا المقام ، فكيف بالبحوث العلمية وكيف بالوقائع والأرقام ؟

عباس محمود العقاد